كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية
"دراسة وصفية تحليلية"

أ. أيت إحدادن كريمة
ج.تيزي وزو

المؤلف الذي نحن بصدد دراسة كتابه هو« أبو حاتم أحمد بن حمدان أللّيثي الورساني الرازي[1]»، وتسمّيه الفرقة الإسماعيلية «سيدنا أبو حاتم» تعظيما لمكانته. ولم تتحدث الكتب عن تاريخ ولادته (مجهول تاريخ الميلاد)، أما عن تاريخ وفاته فتشير المراجع إلى أنّه « توفي سنة 322هـ الموافق لـ934م .[2]«والملاحظ أنّ تاريخ وفاة أبي حاتم الرازي يدل على أنه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، ليكون بذلك معاصرا لفئة من اللغويين أمثال عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت320هـ)، قدامة بن جعفر(ت337هـ)، وابن دريد (ت321هـ) وغيرهم من اللّغويين .

1- مولـده: أما عن مولده فقد أشارت المراجع إلى أن أبا حاتم ولد في "**بشاور** "قرب" **الرّي**«Ragha» "، ومدينة الري القديمة موجودة في الجبال، يشاهد "الرائي [*]"أطلالها على مسيرة خمسة أميال تقريبا من الجنوب الشرقي من طهران، وترجع أهميتها الجغرافية إلى وقوعها بين الجبال والصحراء، وهي المنطقة التي كانت منذ أقدم الأزمنة طريق المواصلات بين غرب إيران وشرقها.

2- مذهبه: لم يفصح أبو حاتم الرّازي عن انتمائه المذهبي، إلاّ أنّ أغلب المراجع تقول إنّه كان « شيعي المذهب » مولعا بالدّعوة **الإسماعيلية** فنشط فيها وتولى أمرها على عاتقه وأرسل إلى المدن المحيطة دعاته، وتمكّن من اجتذاب حاكم الرّي **أحمد بن علي** -الذي كانت فترة حكمه من سنة 307 حتى سنة 311 من الهجرة- إلى الدعوة الإسماعيلية، وقد مثّل نشاط الدعوة الإسماعيلية في عهد إمامة **محمد المهدي بالله عبيد الله** مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب»[3] ، وبذلك كان من المُقيمين بالإشراف على فروع الدعوة الإسماعيلية وتنظيمها وإعداد دُعاتها، وإن كان المؤلف لا يصرّح في كتابه الزينة عن انتمائه المذهبي، فحين يتعرض للحديث عن المذاهب والفرق الإسلامية يقوم بشرحها لغوّيا، مراعياً في ذلك تحفظه لكل مذهب أو فرقة دينية.

ويمكن القول عن الإسماعيلية كونها "انتسبت إلى الإمام **إسماعيل بن جعفر الصادق** ....وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنّما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأنّ : لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلا. ولهم ألقاب كثيرة فبالعراق يسمون **الباطنية**، و**القرامطة** و**المزدكية**، وبخراسان: التعليمية والملحدة[4]"، وقد ظهرت على الساحة الإسلامية بطابع ديني بحت، مدعية استمرار الإمامة المتجسدة في إسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل.وقد عُرف عن الإسماعيلية كونها فرقة ابتدعت لنفسها تعاليم جعلتها تبتعد عن الإسلام بطريقة ما أو بأخرى، لأنّ هذه التعاليم منبثقة عن أراء وأفكار فلسفية تبنّتها فرقة الإسماعيلية جراء اتصالهم ببراهمة الهند، والفلاسفة والبوذيين، كما أنّ "بعضهم اعتنق مذهب زرادشت....[*]وليست عقائدهم مستمدة من الكتاب والسنة، فقد دخلتهم فلسفة وعقائد كثيرة أثّرت فيهم وجعلتهم خارجين عن الإسلام.[5]" لقد انتشرت فرقة الإسماعيلية في الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وبلاد ما بين النهرين،

امتدت لتصل إلى شمال إفريقيا كما أن الفرقة تشعبت فانبثقت عنها فرق أخرى أشهرها الفاطمية، والبهرة كما قلنا.

3- ثقافتـه : لقد كان أبو حاتم الرّازي رفيع الشأن، عظيم القدر، واسع الحفظ، وباعتباره ناشئا في بيئة علمية بين علماء العربية أهل الحديث، فقد كان من أهل الفضل والأدب، وتشير المراجع الإسماعيلية إلى أنّه كان كثير الشغف بالعلوم باختلافها فكان له اهتمام "بعلم الحساب والعدد، مثله في ذلك مثل غيره من الإسماعيلية بعامة، مما يُرجع ذلك بلا شك إلى تأثرهم بالمدرسة الفيتاغورية في العدد، وارتباطه ببعض العقائد الدينية، ونضيف إلى ذلك إلمامه ببعض الآراء في الفلك والنجوم والتقويم"[6]، ويعتبر كتابه الزينة خير دليل على ذلك، لما يحويه من أفكار حول أصول الكلمات، ودلالاتها وحديث عن الشعر والبلاغة والنحو، والعروض، وقضايا الدلالة والحساب .

كما يبدو لنا من خلال كتابه « **الزينة في الكلمات العربية الإسلامية** » متضلعًا في شتى العلوم، وعلى اطلاع واسع بأسرارها ودقائقها، فيبدو فقيها متمكنا فعالج الكثير من المسائل الفقهية، كما اشتغل برواية الحديث، وكان عارفا بالشعر وروايته، فقد اعتمد في كتابه الزينة الكثير من الأشعار، لشعراء جاهليين ومخضرمين، قصد الاحتجاج بأشعارهم في شرح معاني بعض الكلمات التي وردت في كتابه. وفي سعة ثقافته يقول **الزركلي** في كتابه **الأعلام** :«إن أبا حاتم أحمد بن حمدان كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة وسمع الحديث كثيرا، وله تصانيف»[7]، شاهدة على ما قيل عنه من نبوغٍ واجتهاد .

ومن الطبيعي أن يكون الرازي قد أخذ معارفه وسعة ثقافته، من خلال احتكاكه بعلماء مسقط رأسه"الري" التي كانت على حد قول إبراهيم أنيس:

« معقل علمـاء الحديث وأساطين الكلام والفلسفة، وقد كان لأبي حاتم الرازي اتصال مع **أبـي حاتـم محـمد بن إدريـس ألحنظلي الرازي** (*) المتوفى سنة (275**هـ**) والذي يعتبر أحد أئمة الحديث... »[8]، كما كان على صلة وثيقة **بالمبرّد وثعلب،** احتكاكه لهذه الفئة يُظهر اهتمامه بأمور اللّغة العربية، والحديث الشريف . هذا وقد كان معاصرا **لأبي بكـر محـمد بـن زكـريا الرّازي** (**) الفيلسوف، « صاحـب الآراء الفلسفية المعـروفة التي خرج فيها على كثـير من نظريات أرسطو الطبيعية والميتافيزيائية، منكرا التوفيق بين الفلسفة والدين، معتقدا بأن الفلسـفة هي الطريق الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع. وقد دارت بينهما (أي بين الرّازيين) مناقشـات عنيفة ومتعددة، وقد دوّن هذه المناقشات في كتابه أعلام النبوة»[9]، ولم يكن أبو حاتم يصرّح باسم أبي بكر الرازي بل كان يدعوه (المُلحد) لما كان بينهما من اختلافات في وجهات النظر.

4- دراسة كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية شكلا:

يعتبر كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية من الكتب اللغوية القديمة والشكل الخارجي للكتاب يدل على ذلك فغلافه على شكل مجلد أسود اللون وصفحاته من الورق القديم الأصفر. قام بتحقيقه حسيـن فيض الله الهمداني، وطُبع أول ما طُبـع سنة 1956م- وهي الطبعة التي اعتمدتاها في دراستنا- وقد وقع الكتاب في جزأين جاء الجزء الأول في 152 صفحة، والجزء الثاني في 232 صفحة، ولو جمعناهما لأصبحا في 384 صفحة. هذا عن الشكل أو الوصف الخارجي لكتاب الزينة، ولكن ماذا عن مضمونه؟

5- مضمون كتـاب الزينـة :

عنـوان الكتـاب: حول اسم كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية يقول أبو حاتم الرازي وهو يشرح سبب إطلاقه هذه التسمية على كتابه قائلا: « وسميناه كتاب الزينة إذ كان من يعرف ذلك يتزين به في المحافل، ويكون منقبة له عند أهل المعرفة، ولعلّ أكثر الناس قد غفلوا عن الواجب عليهم في تعليمها، واللازم لهم من معرفتها»[10]، فالكتاب يحمل قيمة معرفية، فيكفي أن يكون الملمّ بالكتاب متزينا بما يحويه من معارف لغوية، ودينية، وفلسفية. فالمعارف اللغوية تتجلى من ذكر المؤلف معاني واشتقاقات وأصول الكلمات الواردة في مؤلفه، أما المعـارف الدينية فتتجلى فيما يحمله الكتـاب من معـاني أسماء الله الحسنى، ومعاني كلمات غيبية جاءت بها الشريعة الإسلامية كالقضاء، والقدر، واللوح، والكـرسي، والقلم... وغيرها، أما المعارف الفلسفية فتكمن في خوض المؤلف في قضايا متعلقة بالوجود، والعدم، والفرق الكلامية، وهو باب في الفلسفة الإسلامية.

وعنوان الكتاب يثير انتباه القارئ، حيث إننا نجد صاحبه قدّم فيه **الإسلامية** عن **العربية** ،فلا يقول الكلمات العربية الإسلامية، باعتبار أن الألفاظ العربية أسبق وجودا من الإسلامية، بحيث أنها كانت متداولة قبل مجيء الإسلام، والقرآن نفسه نزل بحروفها وخطها، وسبب هذا التقديم في رأينا يدل على التفضيل الذي مرده إلى تعلق الرازي بلغة القرآن والإشادة بكل ما جاء به، كما يمكن لنا أيضا أن نشير إلى قضية التقديم، والتأخير، التي نراها على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن المؤلف يقدم لنا ومن البداية وقبل فتح الكتاب فكرة عن مضمونه، تجعلنا نحصر فكرتنا عما في الكتاب، في تلك الألفاظ التي

أعطاها الإسلام دلالة، أخرجها بها عن معناها الذي كان لها عند العرب قبل مجيء الإسلام .

وقد تضمّن الكتاب تقديما للدكتور"**إبراهيم أنيس**"، أوْرد فيه ما يشير إلى أهمية الكتاب، والمتمثلة في كون المؤلف قد أسّس **لعلم معاني الأسماء العربية**، وبذلك تكون الأسبقية للعرب في مجال علم تطور دلالات الأسماء، والكلمات، مقارنة بالدراسات الدلالية عن الغرب، ويقول بهذا الصدد: «وتلك الدراسة التي هي أمنية الكثيرين منا، تعدّ بين اللغويين المحدثين في الجامعات الأوروبية دراسة حديثة نسبيا حين تقاس بالنواحي الأخرى من الدراسات اللغوية الأخرى، فهم يطلقون عليها (Semantics) ويعنون فيها بدلالة اللّفظ، ونشأتها، ونموها، ومجال استعمالها في اللغة...ثم يعرضون لتطور هذه الدلالة بتطور العصور والأجيال، وأسباب هذا التطور وعوامله في بحوث مستفيضة توشك أن تصبح علما مستقلا عن علوم اللغة»[(11)]، وأكد قوله هذا بكون ميشال بريال) (Michel Bréalأول من كتب حول تطور دلالات الألفاظ وقد كان هذا سنة (1897م)، حين كتب مقالا سماه "محاولة في علم الدلالة Essai de)" .(sémantiqueفبالمقارنة مع الجهود التي قام بها الرازي في مجال تغير دلالات الألفاظ في القرن الرابع الهجري، يمكن القول إن فضل الأسبقية كان للعرب.

تطرّق إبراهيم أنيس بعد ذلك إلى الحديث عن تطوّر علم الدلالة عند الغربيين، مبينا موضوعاته، وفروعه، لينتقل إلى الحديث عن أبي حاتم الرازي فذكر سيرته الذاتية والعلمية، وفي آخر التقديم حثّ على أهمية الدّراسة والبحث في تطور دلالات الألفاظ، لذا نجده يقول :«ولعلّ في نشر كتاب الزينة ما يحفز الهمم بين الدارسين في عصرنا الحاضر على أن يتوفروا على تلك الدراسة

الدلالية للألفاظ العربية، متخذين من ذلك الأسوة الحسنة» .[12] هذا عن أهم ما جاء في تقديم إبراهيم أنيس لكتاب الزينة .

وقد تضمن الجزء الأول من كتاب الزينة مقدمة لمحقّقه حسين فيض الله الهمداني، تطرّق فيها إلى الحديث عن الدراسات الدلالية عند العرب، وأسبقيتهم في وضع اللّبنة لمثل هذه الموضوعات، كما أشار إلى القضايا الدلالية التي بحث العرب فيها، كنشأة اللغة وعلاقتها بالفكر، وبعدها تطرق إلى الحديث عن حياة المؤلف-**أحمد بن حمدان الرازي** - والتعريف بكتابه الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ومنهجيته في التأليف، وفي آخر مقدمته صوّر نسخا لمخطوطات كتاب الزينة .

منهجية المؤلف : لقد كان صاحب كتاب الزينة يهدف في جمعه الأسماء العربية والمصطلحات الإسلامية وتفسيراته، إلى تحقيق هدف لغوي صرف، و إلى تحقيق هدف إسلامي بأتم معنى الكلمة، ويحاول أن يكون بعيدا عن اختلافات أصحاب الملل، وبعيدا عن اختلاف الفقهاء في فروع المسائل الفقهية، وبعيدا عن اختلاف النحويين في دقائق النحو، وهو يسلك في ذلك المنهج المألوف عند العرب -أيامه- وهو منهج الاشتقاقيين، ليأتي بتفسيرات لغوية واشتقاق كلمات في أسلوب علمي سلس. إنها« مدرسة لغوية سادت في عصره -**مدرسة الاشتقاقيين** -الذين ربطوا بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا، وحاولوا إرجاع كثير من الألفاظ المشتركة في حروفها إلى معنى أصلي عام، منه اشتقت تلك الكلمات، فمعاصره ابن دريد المتوفى 321هـ صاحب معجم الجمهرة له كتاب صغير سماه (الاشتقاق)، حاول فيه أن يرجع كل الأعلام المشهورة في شبه الجزيرة إلى مواد لغوية اشتقت منها... فجعل اسم قبيلة قُضاعة مشتقا من انْقَضَعَ الرجل أي ابتعد عن أهله، وذلك لأنّ قبيلة قُضَاعَة رحلت من

جنوب الجزيرة إلى شمالها»[13]، هذا وتشير الكتب اللغوية إلى أنّ هذه المدرسة الاشتقاقية بلغت ذروتها على يد ابن فارس في أواخر القرن الرابع الهجري في معجمه **مقاييس اللّغة.**

ويسلك أبو حاتم نفس المسلك في علاجه للألفاظ، فكلمة إبليس الواردة في كتابه الزينة يقول في اشتقاقها: «وتقديره في الوزن: إفعيل وهو مشتق من أَبْلَسَ الرجل إذا انقطع، ولم تكن له حجة، ويقال هو من يئس»[14]، ومن خلال اطلاعنا على شرحه لدلالات الكلمات الواردة في كتابه بدا انتماؤه إلى المدرسة الاشتقاقية واضحا، وجليّا .

لقد حاول صاحب" **الزينة** "أن يفسّر معاني الكلمات التي تغيّرت مدلولاتها وتطورت في العصر الإسلامي عمّا كانت عليه في العصر الجاهلي، ولكن هذه المحاولة لم تكن مطّردة ومتواصلة، فهو يبدأ أحيانا بشرح الكلمة كما عرفها العرب قبل الإسلام، ثم يسير إلى أن يشرحها كما وردت في القرآن والحديث، ويورد فيها أراء اللغويين والنحويين، وأحيانا نراه لا يراعي هذا التسلسل الزمني، فيبدأ بمدلولها الإسلامي، ويستشهد على ذلك بالقرآن والحديث، قبل أن يحتجّ بالشعر واللّغة، وكثيرا ما يفسر الكلمات تفسيرا لغويا صرفا فيأتي باشتقاقاتها ومعانيها، فينصرف عن معنييها الجاهلي والإسلامي.

وعلى ذكر استشهاده بالشعر يمكن القول بأنه اعتمد شعراء جاهليين، وإسلاميين ومخضرمين، وهذا ما جعل الدارسين، لكتابه يعتبرونه مرجعا في التغير الدلالي، ومن الشعراء الذين أعتمدهم نذكر منهم امرؤ القيس - النابغة الذبياني، لبيد، الكميت، الطرماح، زهير بن أبي سلمى، الفرزدق، الأعشى، عدي بن زيد، ابن هرمة، جرير، المتلمس، كعب ابن مالك الأنصارى. وكثيرا ما كان يستشهد

بشعراء مجهولين فنجده يقول: قال شاعر، أو قال أخر، كما نجده يعود كثيرا إلى أراء الكسائي، والفراء .

والملاحظ أنّ موضوعات كتاب الزينة كانت منتشرة متفرقة في مؤلفات علماء العربية والمفسرين، ويدل على ذلك ما يكثر في الكتاب من ذكر مجازات العرب التي أوردها أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، وتفسيرات أبي قتيبة الدينوري، ومن خلال اطلاعنا على كتاب هذا الأخير وأعني- ابن قتيبة- في تفسير غريب القرآن، نستخلص أنّ ثمة تشابها كبيرا بين الكتابين ،لذلك يمكن القول إنّ أبا حاتم وضع كتابه على هدى ما جاء في الجزء الأول من كتاب "**تفسير غريب القرآن**".

ولا نستبعد أن يكون كتاب "**تفسير غريب القرآن** "لدى صاحب **الزينة** نواة لمشروع كتابه، فابن قتيبة يفتتح كتابه بذكر أسماء الله الحسنى، وصفاته التي جاء ذكرها في التنزيل، ويتّبع ذلك بألفاظ كثر تردّدها في الكتاب، مثل الجن، والإنس، وإبليس والشيطان والنفس، والصور، واللعن، والشرك والكفر، والظلم، والفسق، والفجور، والنفاق، والصلاة، والزكاة، والشعائر، والحج، والقرآن، والسورة، والآية، والمثاني، والتوراة، والإنجيل، والكتاب وأساطير الأولين، وهي نفس الألفاظ التي أوردها أبو حاتم في كتابه الزينة، وضم إليها جميع تفسيرات ابن قتيبة.

لقد كان ابن قتيبة في كتابه "تفسير غريب القرآن"، يمرّ بهذه الكلمات مرور الكرام لأنّه كان يسعى إلى تفسير الغريب فكان عنوان تفسير غريب القرآن دالاً على مضمونه أما أبو حاتم الرازي فنجده يتوسّع في رقعة البحث في دلالات أسماء الله الحسنى والكلمات التي كثر ترددها في القرآن، مستشهدا على ذلك بما جاء في سنة رسول الله وبما جاء في الشريعة، وبما قالته العرب شعرًا.

تصنيف كتاب الزينة : لقد تعددت موضوعات كتاب الزينة كما قلنا، فتعذر على الدارسين أمر تصنيفه، هل يصنّف ضمن كتب غريب القرآن؟ أم يصنف ضمن كتب تفسير القرآن؟ أم يصنف ضمن كتب علم الدلالة؟

في الحقيقة إنّ كتاب "الزينة" يحوي بين دفتيه جلّ الموضوعات، المذكورة أعلاه لذا تساءل الدّارسون في أمر تصنيفه، وفيما يلي سنوضح تعدد الموضوعات التي جاءت فيه. إذا تصفحنا الجزء الأول من كتاب الزينة وجدناه كتابا في اللّغة، ففيه يتحدث المؤلف عن قضايا تتعلق باللّغة العربية مشيدا بها وبمكانتها، معترفا بأفضليتها على سائر اللغات الأخرى مشيرا إلى علومها من نحو، وعروض، وبلاغة، وشعر، مفنّدا أعلامها، كالخليل بن أحمد، وأبي الأسود الدؤلي، والكسائي، والفراء، وغيرهم من اللغويين .

إذن بالنظر إلى طبيعة هذه الموضوعات التي تطرّق إليها أبو حاتم الرازي، يمكن القول إنه كتاب كسائر كتب اللغة عند القدامى.

وإذا نظرنا إلى الكتاب من زاوية أخرى، أي بمقارنته مع كتب غريب القرآن، فإنه يمكن استنتاج أن موضوعات كتاب الزينة متشابهة مع موضوعات كتاب غريب القرآن لابن قتيبة فيكفي أن يكون الأول قد قام بشرح أسماء الله الحسنى وذكر اشتقاقاتها، والأمر نفسه قام به ابن قتيبة. كما أنّ كتب الغريب كانت قد اهتمت بشرح الكلمات الأعجمية الواردة في القرآن وهذا ما قام به الرازي، حين تعرض لشرح كلمات وردت في القرآن، لم تكن العرب تعرفها، وهي الكلمات نفسها التي عنيت بها كتب غريب القرآن وهذا ما أقرّ به ابراهيم أنيس حين قال: « وبذلك كان كتاب **الزينة** جامعا لمناهج أصحاب غريب القرآن وغريب الحديث وغريب اللغة ومن ثم كان نموذجا لأصحاب المعاجم المتخصصة» .[15]

و إذا أخذنا بعين الاعتبار، عودة كتب التفسير إليه (الزينة)، فإنه يمكن القول إنه كتاب في تفسير القرآن، فقد اعتمده البقاعي في كتابه نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور كما اعتمده السيوطي في شرح بعض الكلمات الواردة في آيات قرآنية، وللتذكير فقط فإن السيوطي كان قد عاد إليه في شرح الكلمات الأعجمية الواردة في القرآن الكريم، في شرح كلمة رِبّيُون، وكلمة سِجّين، وكلمة الصّراط، وهذا ما جعل الدارسين يعتمدونه في شرح الكلمات الدخيلة، فيمكن عدّه من مصادر الكتب في معرفة المعرّب، والدخيل.

وهناك طائفة أخرى من الدارسين ذهبت إلى أبعد من ذلك كله، فاعتبروه معجما تاريخيا، مع العلم أن العرب لم تكن لهم أعمال جادة في هذا المجال، لأسباب عديدة، فبعضهم يقول: « لو أنّ الحضارة العربية لم يدركها ما أدرك الحضارات السابقة واللاحقة من تعثّر وعطب، لكان علماء اللغة العربية قد أنجزوا المعجم التاريخي منذ وقت مبكر ولكانوا قد اهتدوا بحسهم النقدي وبصيرتهم اللّغوية النافذة إلى العناية بكل ما تدعو الحاجة إليه، والدليل على ذلك هذا الكتاب الذي جعلته محورا ومدارا لبحثي...لما يقدمه من إرهاصات أولية عن بداية إدراك أهمية تأليف **معجم تاريخي لألفاظ اللغة العربية**، يقف جنبا إلى جنب مع القواميس، والمعاجم، والموسوعات التي اعتنت بجمع هذه الألفاظ واشتقاقاتها ومفرداتها" [(16)] و إذا أسلمنا القول بكون كتاب الزينة يمثل لبنة من لبنات المعجم التاريخي، فهذا بفضل انتهاج صاحبه طريقة في تأليف كتابه، تشبه إلى حدّ ما بعض خصائص المعجم التاريخي وهذا ما سنبيّنه من خلال تعرضنا لمفهوم المعجم التاريخي.

مفهوم المعجم التاريخي : لقد اهتم علماء العربية الأوائل بجمع الألفاظ العربية وترتيبها وتحديد معانيها، ونجحوا في حصرها وكان إمامهم

الأول في ذلك الجهد **الخليل بن أحمد الفراهيدي** ، وقد كان عمله بداية القواميس والمعاجم، فألّف معجم العين وتلاه بعد ذلك نفر كبير من المعجميين ساروا على نهجه في التأليف فألفوا معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني. ومما حاول اللغويون العرب القدامى، ولم يصلوا فيه إلى الغاية التي كانوا يتمنّونها، البحث عن تطور استخدام المفردات وهو ما نعرفه اليوم بالمعجم التّاريخي.

ويعرّفه المحدثون بقولهم:« المعجم التاريخي معجم يُعنى بكل لفظ استعمل أو يستعمل في العربية المكتوبة، وبيان نطقه، وتطور ذلك النطق، إن طرأ عليه ورسمه وتعدده وتغيره، وتصريفه وجوانبه التركيبية، ومعانيه، وتطوراتها، ومستويات استخدامه وأصوله، والتأريخ لكل الطوارئ والتغيرات التي أصابت اللّفظ أو المعنى، اعتمادا وتسجيلا بكل الشواهد (النصوص والاقتباسات) الدالة المساعدة، كل ذلك بأسلوب وصفي تسجيلي بحت" .[17] لقد تفطّن اللغويون العرب إلى ضرورة انجاز معجم تاريخي، فقامت" **جمعية المعجمية التونسية** "بالدعوة إلى تضافر جهود العرب في سبيل انجازه، ففي سنة 1989م أقامت الجمعية ندوة خاصة كان عنوانها" **المعجم العربي التاريخي: قضاياه ووسائل انجازه،** "أكدّ فيها المشاركون على أنّ المعجم التاريخي العربي ضرورة لا غنى عنها في عصر الإعلاميات والتوثيق والمعلومات المتنوّعة فهو يعتبر أداة وظيفية متعدّدة المقاصد يستحيل الاستغناء عنها فهو ذاكرتنا اللغوية والثقافية والحضارية، فهو آلية من الآليات المُمَنْهجة التي تؤرخ لحضارتنا وثقافتنا، من خلال خطابنا اللغوي.

وقد أشار رئيس" المعجمية" إلى أنّ « نشأة جمعية المعجمية العربية بتونس التي أقرّت في أول ما أقرّت العناية **بالمعجم التاريخي العربي وانجازه**، حتى تؤدي تونس ما عليها من واجب في هذا الميدان وما ندوتنا هذه إلا خطوة من خطوات

نضالنا العلمي»، [18] وقد انطلق المشاركون في الندوة من الأعمال التي اعتبرت أفكار نواة في انجاز المعجم التاريخي مثل كتاب الزينة، ودائرة المعارف الإسلامية، ومعجم فيشر، فقد حاول المستشرق الألماني"أوجست فيشر" تجسيد فكرة المعجم التاريخي للغة العربية بصورة علمية ولكنها مع الأسف على أهميتها، لم تتعدّ تجربة فردية محدودة، وقد تصور أنّ :« المعجم التاريخي قد قام على أساس تدوين كل كلمة في العربية من عهد النقوش- أول نص مكتوب- حتى نهاية عصر الفصاحة والاحتجاج، مع بيان أصول الكلمات وتتبّع التطورات التي أصابت هذه الكلمات ومعانيها تاريخيا -زمنيا- كل ذلك مدعما بالنصوص والشواهد والاقتباسات من اللّغة المكتوبة من مصادرها المختلفة والاهتمامات بسياقات النص والاستعمالات والأساليب الاستخدامية المختلفة»[19]، وهذا ما قام به بالفعل أبو حاتم الرازي في كتابه الزينة، فقد بحث في أصول الكلمات مع تبيان معانيها مبرزا تغيّرات أصواتها ودلالاتها، انطلاقا من العصر الجاهلي مستشهدا بالنصوص الشعرية وصولا إلى العصر الإسلامي مستشهدا بالقرآن والحديث.

وقد أكد هذا الرأي" **عبد العزيز صالح المقالح** "في مقال نشره في مجلة مجمع اللّغة العربية يقول فيه: « والحقيقة أنّ فضل كتاب الزينة هو اتخاذ صاحبه نهجا غير مسبوق في قراءته لقائمة من المفردات، والنظر في مستوياتها المتداخلة والمختلفة للكشف عن الدلالات السابقة والراهنة لهذه المفردات، من خلال شروح وافية، وقريبة من الأنساق المعجمية الحديثة، واستدلاله بشواهد قرآنية وشعرية، وهو ما يمكن اعتباره بداية التفكير في إعداد المعجم التاريخي»[20]، وقد بيّن الباحثون في هذا المجال أنّ « أفضل المعايير في تحديد معاني الكلمات ومتابعة ما يطرأ عليها من تغيرات، التماسها في نصوص وشواهد

من كتابات الأدباء، ومن مؤلفين جديرين بالثقة، واستنباط معانيها في سياق استعمالاتها في هذه الشواهد، ورصد أي تغيير في دلالاتها بتتابع زمني على مر السنين، ومما يجب أن نؤكده أن نحرص على ألا يكون اختيار الشواهد تلقائيا، بل يجب أن يسعى إلى الشمول من حيث الزمان والمكان، ومن حيث الوفرة وتتابع التغيير في الدلالات»[21]، ومن خلال دراستنا لكتاب الزينة يمكن القول إن صاحبه التزم الطريقة نفسها في تأليفه للكتاب، فبين دلالات الكلمات الواردة في كتابه، انطلاقا من الشواهد الشعرية عند العرب في مرحلة الجاهلية، وصولا إلى المرحلة الإسلامية .

يمكن القول إن كتاب الزينة يعتبر بحق من الأعمال التي تشكل الأفكار النواة لانجاز معجم عربي تاريخي، إلاّ أنّ انجاز معجم تاريخي بمفهومه الدّقيق يتطلب إمكانيات مادية وبشرية ضخمة، لأنه عمل جماعي يلتقي فيه العالم في الصوتيات، وعالم النحو، والصرف، وعلم الدلالة، ويلتقي فيه العلماء في كل العلوم الإنسانية الأخرى من تاريخ إلى جغرافيا إلى علوم الاجتماع إلى علم النفس ويشترك فيه بالضرورة العلوم الدقيقة من فيزياء إلى كيمياء، إلى علم الفلك إلى طب ....ناهيك عن تسخير الأجهزة الالكترونية، والاستفادة من المعلوماتية. هذا عن الآراء التي تجعل كتاب الزينة من المحاولات الأولى لإنجاز المعجم التاريخي، وقلنا أراء لأن ثمة أراء أخرى ترى فيه تصنيفا آخر.

أما حلمي خليل فقد اعتبر كثرة وتعدّد الموضوعات التي تناولها أبو حاتم الرازي سببا لجعل كتاب **الزينة معجما عاما**، لذا نجده يقول: «ولعل كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي يعد من الأعمال الناجحة في هذا المجال، وهو **معجم عام** في المصطلحات، إذ يحتوي على مصطلحات بعضها ديني جاء في القرآن أو الأحاديث النبوية، والأخر مما يتردد

على ألسنة الفقهاء، وأصحاب المذاهب الكلامية والفلسفية، وغيرهم من العلماء، وكلها كلمات اكتسبت دلالات اصطلاحية تحتاج إلى تحديد وبيان" .[22]
ونحن نقول إنّ أبا حاتم الرازي حاول أن يتتبع التغيّر الدلالي الذي طرأ على هذه الكلمات بما لها من صلة بالتطور الذي حدث في حياة العرب والمسلمين، ومن ثم كان منهجه في الدراسة الدلالية أن يبدأ بتحديد أصل الكلمة، ثم يشرح ما تدل عليه في العربيـة، أو كما جاءت في القرآن والحديث، ثم يحدد المدلول الجديد، وهو ما أسماه بالمدلول الإسلامي، فظاهرة التغير الدلالي التي رصدها المؤلف من خلال كتابه ومنهجيته التي اتبعها جعلتنا نصنفه ضمن كتب علم الدلالة.

وخلاصة القول، أنه بعد دراستنا لـكتاب الزينة لأبي حاتم الرازي والوقوف على جزئياته، توصّلنا إلى أنّ الكتاب يعتبر أرضية معرفية، ينطلق منه الباحث في الدراسات اللغوية عموما. والدلالية خصوصا، وذلك لما يحمله من قيمة علمية أكّدها الكثير من اللغويين. فالرازي في كتابه لغوي ذكي، يسـتعين في فهمه للألفاظ بحروفها الأصليـة، ومادتها الاشتقاقية، لأنّه أراد من محاولته اللغوية في الزينة خدمة دينه نظرا لما بين العربية والإسلام من صلة وثيقة، وبذلك يُنصح الطالب المتخصص في اللغة بالاطلاع عليه لأن قيمة كتاب الزينة من قيمة كتاب الخصائص، وكتاب المزهر في علوم اللغة وغيرها من كتب اللغة.

الإحالات:

1- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف *قاموس عام لكل فن ومطلب من ابن* ماجة إلى أبو العيبناء، دط. بيروت: 1962، المطبعة الكاثوليكية، المجلد الرابع، ص .243

2- محمد خير الدين الزركلي: **الأعلام** *قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من* العرب والمستعربين والمستشرقين ب ، ط3. دت: ج1، ص 116 .

3- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المجلد الرابع،243.

4- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: *الملل والنحل*، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، ط1. لبنان:2000، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، ص 156-157.

5- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، ص157.

6- رياض العشيري: التصور اللغوي عند الإسماعيلية، دط. مصر:1985، منشأة المعارف، ص67.

7- محمد خير الدين الزركلي:" الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج1، ص 116.

8- أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، **تاب** عارضه بأصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمداني، ط1 .القاهرة:1957. مطابع دار الكتاب العربي، ج2، ص29 (تقديم حسين الهمداني).

9- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المجلد الرابع، ص 243.

10- أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، ج1،ص58.

11- المصدر نفسه، ج1، ص54 (تقديم إبراهيم أنيس.)

-12- المصدر نفسه، ص13 .

13- المصدر نفسه، ج2، ص10 (تقديم إبراهيم أنيس).

14- المصدر نفسه، ج2، ص192.

15- المصدر نفسه، ج1، ص10.

16- عبد العزيز صالح المقالح: " كتاب الزينة إرهاصات أولية في العمل المعجمي العربي"، مجلة مجمع اللّغة العربية، (بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين القسم الثاني)، القاهرة:2003، العدد99. ص52 .

17- علي توفيق الحمد،" المعجم التاريخي العربي: "، مجلة المعجمية العربية، تونس:1989-1990، بيت الحكمة، العدد5-6، ص110-111.

18- رشاد الحمزاوي: " كلمة الافتتاح التي ألقاها بندوة المعجم العربي التاريخي"، مجلة المعجمية، تونس:1989-1990، بيت الحكمة، العدد5-6،ص 8.

19- علي توفيق الحمد،" *المعجم التاريخي العربي*" ، ص102.

20- عبد العزيز صالح المقالح: " كتاب الزينة إرهاصات أولية في العمل المعجمي العربي"، ص52 .

21- عبد الكريم خليفة: "نحو المعجم التاريخي للغة العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية، (بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين القسم الثاني)، القاهرة: 2003، العدد99، ص14.

22- حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، ط1